مقدمة

درج العرب ، والمصريون منهم ، على معالجة قضاياهم ، مهما كان خطرها ، من خلال الأشكال الأدبية ، كالرواية والقصة والمسرحية ، وما ماثل . وهذه الأشكال ، بطبيعتها وسياقاتها ، لا تتحمل نقاشًا علميًّا رصينًا ، ولا تتقبل جدالاً فكريًّا عميقًا ؛ فلا يرد فيها إلا القليل والبسيط من أفكار متفارقة فى أكثر من مكان ، وآراء متباينة فى أكثر من موضع ؛ لايمكن جمعها معًا فى مكان واحد ، أو ضمها إلى بعضها فى مجال محدد . وعندما ظهرت المقالة (أو المقال) مع نشوء الصحافة ، فى مصر والعالم العربى ، منذ أواخر القرن الماضى ، ظلّت المقالة ، لفترة طويلة ، تُكتب بأسلوب أدبى إنشائى ، تغلب فيه العبارات اللفظية والصياغات البلاغية ، فتحول دون اتباع النهج العلمى فى التحليل والبيان ؛ ومع الوقت ، تحررت المقالة من هذه القوالب الجامدة ، وبدأت تتجه إلى التعبير المباشر والأسلوب السهل والبيان البرقى (التلغرافى) ، بهذا صارت المقالة عاملاً مؤثرًا فى التحليل السياسى أو العرض الفكرى أو النقد الفنى ، لكنها مع ذلك ظلت محدودة بطبيعتها ، مقصورة بظروفها ؛ أقرب ماتكون إلى الإلماح العاجل ، وأدنى ما يمكن إلى الإلماع السريع ، وبهذا لم يعد ثمّ مفر أو مخرج من مناقشة الفكر أو تحليل الآراء فى كتب تتسع للنقاش وتنبسط للتحليل .

الكتب تغرى الكاتب بأن يتجه إلى الأسلوب المدرسى (الأكاديمى) فى العرض والنهج والتحليل والاستنتاج ؛ وهو أسلوب قد لايستسيغه القارئ العادى فيشيح عنه ولا يقبل عليه ، ومن هنا قامت الحاجة إلى كتابات علمية بأسلوب جديد ، وكتب فكرية بنهج مبسط ، تعرض وتناقش

وتحلل الأفكار الرصينة ، بعيدًا عن المنهج المدرسى (الأكاديمى) ، وبمنأى من الشكل الأدبى ، فظهرت بذلك كتب فكرية ، يكتبها مفكرون ، لايتعملّون المنهج المدرسى (الأكاديمى) ، ولا يتصنعون الشكل الأدبى ، وإنما يكونون فيما يفعلون بيْن بيْن ، فيعالجون القضايا الفكرية العويصة بأسلوب علمى ، ولكنه سهل ميسور .

ولأسباب مختلفة ، فقد ظلت ساحة الفكر العربى مفتقدة إلى هذا النوع من الكتابة وهذا النهج من المعالجة ، وبقيت السيادة للأشكال الأدبية أو للمقالة الصحيفة ؛ مع أن ظروف الواقع العربى تلح على ضرورة وجود فكر عربى ومفكرين عرب ، يعالجون قضاياهم ، من خلال كتب فكرية ، ولا يقصرون جهدهم على الشكل الأدبى وحده ، أو المقال الصحفى دون سواه .

وكانت الحاجة أكثر إلحاحًا فى مجال الفكر السياسى ؛ خاصة مع انتشار الأيديولوجية السياسية عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ونتيجة للمسألة الفلسطينية وتداعياتها على الساحة العربية ، وأثرًا لتنامى العمل السياسى العالمى ، وازدياد أهميته ، ونفاذه إلى الشئون الخاصة فى كل أنحاء العالم ، ومنه العالم العربى . ومع قيام المقالات الصحفية بدور فعّال فى ذلك فإنها لم تعد كافية ، خاصة وأن كثيرًا منها صار أدنى مايكون إلى المقال الإخبارى ؛ يسرد الأحداث المتتالية فى موضوع بعينه ، دون أن يواكب السرد إبداء رأى واضح ، أو بيان رؤية خاصة ، أو تعليل واقع الأحداث ، أو تحليل ما وراء الأخبار .

وحتى إذا ما أبدى كاتب رؤية معينة له فى حدث بذاته فإن الرؤية ، وكذلك الرأى ، قد لا يتسم بالموضوعية أو يتصف بالحياد ؛ ذلك أن لبعض الكتّاب توجهات معينة أو خصومات خاصة أو صلات شخصية ، تؤثر

على حيادهم أو تفقدهم الموضوعية ، حين يؤيدون سياسيًّا معينًا أو يحبذون سياسة محددة ، مهما كان الخطأ الواضح فى هذه السياسة والمآخذ الشديدة على ذلك السياسى ؛ ثم إذا بهم يعارضون سياسيًّا آخر أو يناوئون سياسة مغايرة ، مهما كان فى السياسة من صواب وكان لدى السياسى من إقناع .

وقد لجأ بعض الكتاب والصحفيين إلى اتباع أسلوب آخر فى سرد الأحداث التاريخية ، بعيدًا عن عمل المؤرخ الحقيقى ، وبمنأى من الفكر السياسى العام . ذلك أنهم يلجئون إلى الوثائق السياسية التى تفرج عنها بعض الدول ، وخاصة بريطانيا والولايات المتحدة ، بعد فترة تتراوح من ثلاثين إلى خمسين عامًا منذ وقت تحريرها ، ثم يعرضون هذه الوثائق مع تحليلات شخصية أو ذكريات خاصة أو معلومات مستقاة من بعض المصادر . ومع أنه مما لا شك فيه أن نشر هذه الوثائق يحقق فائدة فى جلاء بعض الأحداث التاريخية وبيان ما كان وراءها من خلفيات ، فإن هذا النشر – بما يصاحبه – لا يكفى لتقديم كل الصورة التاريخية ولا يؤدى إلى بيان كل الأسباب التى كانت فى خلفية الأحداث ، وذلك لأسباب عدة (أولا) فالحكومات لاتفرج عن كل الوثائق التى لديها ، وإنما تفرج عمّا لاترى خطرًا فى نشره ، أو ما يكون مضمونه قد بات معروفًا للكثير ؛ ثم تستبقى الوثائق ذات السرية الشديدة أو التى ترى أن مصلحتها القومية تقتضى احتباسها وعدم الإفراج عنها (ثانيا) والوثائق وحدها – حتى ولو كانت كاملة – لاتكفى لتقديم الواقعة التاريخية ، لأن لهذه الواقعة عناصر أخرى غالبًا مالا تثبت فى الأوراق ولا تكتب فى الوثائق ؛ إنما تتكشف مع الأيام أو تظهر خلال التاريخ ،

للباحث المدقق الدؤوب أو لمجموعة من المؤرخين يعملون بكد واجتهاد عملاً تكامليا ، يجمع أعمالهم فى وحدة صحيحة ، أو تراكم هذه الأعمال مع توالى الأجيال حتى ينشأ من التراكم المعرفى فهم صائب (ثالثا) ولأن من يكتب هذه الوثائق أصلاً ، غالبًا مالا يكون محايدًا كل الحياد أو موضوعيًّا تمام الموضوعية ، فيكتبها من وجهة نظره هو ، أو نقلا عن مصدر غير أمين أو غير دقيق ، هذا فضلاً عن أن نشر الوثائق يخضع هو الآخر لعملية انتقائية توافق وجهة نظر الكاتب ، فبإخفاء وثيقة واحدة ، أو بإعادة ترتيب الوثائق ، أو بإضافة تعليق وجيز ، يمكن أن تتغير الحقائق تمامًا فى فهم القارئ .

لكل أولئك يكون العمل على إيجاد الفكر السياسى ، ونشره فى العقل العربى من خلال أعمال متعددة ، لمفكرين متنوعى الثقافة ومختلفى الاتجاهات ، ضرورة لازمة ، لا محيص عنها ولا معدى منها ، لوضع أسس التنوير وبذر بذور الثقافة السياسية ، القادرة على الفهم الصحيح والمؤدية إلى النقد السديد ، والتى تساعد على انتهاج السبل القويمة كما تشجع على إبداء النقد الذاتى وقبوله ، من الحكام والمحكومين على حد سواء .

وهذا الكتاب محاولة فى هذا الاتجاه يعالج قضية العرب المصيرية فى القرن العشرين ، وربما فى القرن الذى يليه ، ألا وهى « الصراع الحضارى بين العرب وإسرائيل » ، ولا شك أن المعالجة تتأثر بثقافة الكاتب كما تتلون برؤاه ؛ ومع ذلك فقد بُذل جهد كبير لتكون المعالجة أدنى ماتكون إلى الموضوعية وأقرب مايمكن إلى المحايدة . وهى ، على أى حال ، مناسبة لفتح الأبواب إلى مواضيع كثيرة ، وشق الطرق إلى اتجاهات متعددة ، للبحث والفهم والتقدير .

وقد نشرت أجزاء هذا الكتاب فى مقالات بمجلة « أكتوبر » المصرية خلال شهور يونيو ويوليو وأغسطس ١٩٩٦ م ، هى فى الأصل فصول له ، ويكون إعادة نشرها فى كتاب هو الأصل والهدف ، خاصة وأن قراءة الفصول متتابعة متكاملة يعطى صورة أوضح ويقدم تفسيرًا أدق .

والله الموفق .

obeikandl.com